

وقفة مع دعاء التبرج والسفور

* هذا التبرج الذي سماه الله تعالى تبرج الجاهلية الأولى كثيرون يدعون إليه، وقللت الغيرة في نفوس كثيرون ممن يسمون رجالاً، وهم أشباه رجال. * ولا شك أن لهؤلاء الدعاة شيء من الشبهات التي يتعلمون بها، والأصل أنهم إنما قلدوا الكفرة؛ حيث إنهم رأوا الكفار قد أسفروا نساؤهم وبرزت أمام الرجال، فتوهمت المرأة المسلمة أنه لا يكون لها قدر إلا بتقليل الكافرات، ودعا إلى ذلك من لهم حظوظ مادية أو شهوانية، فقاموا بالدعوات المضليلة، ودعوا إلى انفراج المرأة وانطلاقها من حجز الجدران الأربع، وجعلوا لها حقاً كحق الرجل. وقالوا هي مثل الرجل وحقوقها مهضومة وأنهن... وأنهن... * ودعوا إلى أن تُزاحم الرجل في أعماله، فتتوالى ما يتولاه الرجال من الأعمال؛ فتقلي جلب الحياة عنها، وطبقوا ذلك كل التطبيق في مدارسهم، فصار الطالب يلتصق بالطالبة كأنه محررها، وكذلك في الوظائف، فالموظفة محررها الموظف. وتترجل النساء فيتشبهن بالرجال، وقد { لعن الرسول - صلى الله عليه وسلم - المختبن من الرجال والمترجلات من النساء } الحديث: "لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المختبن من الرجال، والمترجلات من النساء، أخرجوهم من بيوتكم، فأخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلانا، وأخرج عمر داود (4930)، وأحمد في مسنده 1 / 225، 226). وقال أحمد شاكر (1982): إسناده صحيح. والمترجلة: هي المتشبهة بالرجال، ودعا أولئك الصالل إلى قيادتهن السيارات والسفر وحدهن كما يسافر الرجل، وكذلك تتولى الخصومات وما إلى ذلك. ولا شك أن للمرأة أعمال خاصة بها، فهي تكون ربة بيت تلزم منزلها، وتحدم زوجها، وتقتصر نظره عليها، وتقوم بإصلاح بيتها وتربيه أولادها، هذه هي وظيفتها وهذا هو عملها. أما الأعمال التي تحتاج إلى البروز فإنها من وظائف الرجال كما هو معروف، ولذلك قال الله تعالى: { الرّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا قَضَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَّبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ } . فجعل الرجل هو الذي ينفق على المرأة وهو القائم عليها، وقد دل على ذلك قوله تعالى: { وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ } أي رفعة: فإن الإسلام لم يظلم المرأة بل رفعها وكرمها، وجعل لها عملها الخاص بها المتماشي مع فطرتها والمحافظ على آنوثتها، وهو عمل عظيم، وهو صيانة بيتها، وإراحة زوجها وتربيه الأولاد الذين هم عماد الأمة، فكم من زوجة خرجت أبطالاً بترتيبهم التربية الصالحة! فتخرجوا أبطالاً مغاوير يحملون لواء هذا الدين. * ولكن رغم ذلك كله فإن لهؤلاء الدعاة يتتشبهون بأشياء يستدلون بها على ما يبررون به موقفهم. * ونحب أن نتعرض إلى شيء من أدلةهم التي يستدلون بها، والتي يعتمد عليها دعاء التبرج والسفور في دعواهم. الأدلة التي يستدل بها دعاء التبرج والسفور الدليل الأول: قوله تعالى: { وَلَا يُبَدِّلَنَّ زَيْنَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا } . * يقول دعاء الباطل أن ما ظهر منها يعني الوجه والكتفين، ولقد اشتغلت أكثر تفاسير المتأخرین على هذه الجملة، وهم الذين قدروا الغرب وأخذوا ذلك عنهم، وال الصحيح أن { مَا ظَهَرَ مِنْهَا } أي من ثيابها، أي ما لا يمكن ستره كالثياب ونحوها، فالثياب هي الزينة، قال تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ حُذُّوْ رِزَّتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } فلا تبدي المرأة زينتها الخفية كحليها ووجهها أو شيء من جسدها وما أشبه ذلك، أما ثيابها إذا كانت مرصعة بنقوش جميلة فلا تبديها إلا ما ظهر منها، وهو ظاهر الحلب وبظاهر الثياب، فالذين قالوا الزينة: الوجه والكفان ليس لهم مُستند إلا أثر عن ابن عباس ولم يثبت هذا الآخر. * أما الذي ثبت عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: { يُبَدِّلَنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيْهِنَّ } أنها تلقي جلبابها على وجهها، ولا تبدي إلا عيناً واحدة تنظر بها الطريق. * فكيف يقول ابن عباس أن الوجه والكتفين ليسا من العورة وإنما يجوز؟ حاشا أن يكون ذلك ثابتًا عنه، فهو منافق لكلامه هذا. الدليل الثاني: قوله-صلى الله عليه وسلم- { يَا أَسْمَاءَ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيضَ... } . والحديث في سنن أبي داود عن عائشة -رضي الله عنها- { أَنَّ أَسْمَاءَ دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رَفَاقٌ، فَصَرَفَ بَصَرَهُ عَنْهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا أَسْمَاءَ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيضَ لَا يَصْحُ أَنْ يَرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا وَهَذَا، وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَفِيهِ } أخرجه أبو داود (1404). . وهذا الحديث ضعيف: ففي إسناده رجل يقال له: سعيد بن بشير وهو مشهور بأنه ضعيف لا يعتمد عليه، وفي سنته انقطاع أياً. * فكيف يعتمد على هذا، وترك الأدلة الواضحة من الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة وأقوال المفسرين من سلف الأمة. * وبالجملة فهذا أكبر ما تمسك به أولئك الدعاة إلى السفور، وهو حديث لم يثبت، ولو ثبته من ثبته من يربدون أن يتبعدوا غرائزهم من عورات المسلمين. الدليل الثالث: قصة المرأة سفيعاء الخدين: * ويستدلون كذلك بأحاديث لا دلالة فيها مثل قصة المرأة التي تكلمت لما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم العيد ليعطاء النساء فصل العيد وخطب الرجال والنساء، ثم كلامهن وقال: { إِنَّكُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ } فقالت امرأة سفيعاء الخدين: لماذا تكون أكثر أهل النار؟ * فقال: { لَا إِنْكُنْ تَكْفُرُنَّ الْعَشِيرَ وَتَكْفُرُنَّ الْإِحْسَانَ... إِلَخْ } أخرجه أحمد 1 / 433، والدرامي 1 / 237. . فقالوا: إن سفيعاء الخدين دليل على أنها أبرزت خديها، وحاشا ذلك؛ فإن كلمة سفيعاء الخدين ليس المراد بها أن على خديها شيء من السفع، أو من البياض، ومن الحمرة أو نحوه، وإنما هذه الكلمة تطلق على المرأة الجريئة؛ لأنها امرأة جريئة أو مبتدلة.. ونحوه، أي معها جسارة وجرأة على الكلام في ذلك الجمع. الدليل الرابع: قصة الفضل بن عباس * وأما استدلالهم بما روى في حديث حجة الوداع أن امرأة سالت النبي عن أبيها الذي أدركه الإسلام ولم يؤد الفريضة، وكان الفضل بن عباس رديف النبي -صلى الله عليه وسلم- فجعل الفضل ينظر إليها، وجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يصرف بصره عنها. أخرجه البخاري (1513)، ومسلم (1334)، وأبو داود (1809). . * فيقولون: إن هذا دليل على أن تلك المرأة قد أبدت وجهها ولو لم تبهه لم ينظر إليها الفضل * فنقول: ليس كذلك؛ بل إن النظر قد يحصل به فتنة ولو كانت متسترة، وتحقيق نظرك إلى امرأة متسترة إلى مشيتها وكلامها وهيئتها وبدانتها وطولها مثلاً ويدانتها ونحافتها وما أشبه ذلك، قد يكون سبباً للفتنة، فأولى أن لا تنظر إليها ولو كانت محتجبة.